



REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
MINISTÈRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHESCIENTIFIQUE
Université Mohamed Boudiaf de M'Sila
Faculté des Lettres et des Langues
En collaboration avec
le Laboratoire des Études Linguistiques Théoriques et Pratiques



Ouvrage collectif international

La poésie populaire algérienne : enjeux identitaires, socio-historiques et mémoriels.

Sous la direction de

Dre Abla HOUICHI

Pre Ouahiba ZELLAGUI

Pre Catherine GRAVET

Pr Abdelkader KHELIFI



Republique Algerienne Democratique Et Populaire

Ministere De L'enseignement Superieur

Et De La Recherchescientifique



Université Mohamed Boudiaf de M'Sila Faculté des Lettres et des Langues

En collaboration avec le Laboratoire des Études Linguistiques

Théoriques et Pratiques

La poésie populaire algérienne :

Enjeux identitaires, socio-historiques et mémoriels.

Ouvrage collectif international

Sous la direction de

**Dre Abla HOUICHI, Pre Ouahiba ZELAGUI, Pre Catherine
GRAVET et Pr Abdelkader KHELIFI**

Sommaire

N°	Titre	page
	Préface	
	Introduction	08-09
Première partie : La poésie populaire algérienne : de la poétique à la critique sociale		
01	L'oralité poétique du chant kabyle : une véritable «archive vivante» et un pilier de la conscience kabyle Abla HOUICHI Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie Catherine GRAVET Université de Mons, Belgique	11-37
02	Discours poétique et discours social dans la poésie populaire d'Abderrahmane Mejdoub KHELFAOUI Benaoumeur Université Kasdi Merbah Ouargla, Algérie	38-49
03	L'influence du Coran sur la poésie populaire algérienne : un regard sur l'intertextualité Mhamed BOUDIA Université de Saida : Dr. Mouley Tahar, Algérie Souad BOUHADDJAR Université de Saida : Dr. Mouley Tahar, Algérie	50-61
04	Analyse linguistique et discursive d'un chant populaire oral algérien Pr Abderrazek ZEBIRI Université Mohamed Boudiaf de M'sila, Algérie	62-72
05	Language and Cultural Identity in the Digital Space: From Folk Poetry to New Representations of Belonging – A Sociological Analytical Study BOUZNED Samira Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie CHETOUANI Noura Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie	73-96
Deuxième partie : La poésie populaire algérienne : Identité, Histoire et mémoire collective		
06	La poésie : Le chant d'un cri dans le mémorial historique GAOUDI Fella Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie ZELLAGUI Wahiba Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie	98-113

07	Preserving Algeria's Oral Legacy: Challenges and Strategies for Popular Poetry ZIANE Fouzia University Mohamed Boudiaf of M'sila, Algérie	114-130
08	Anthologies de Poésies Traditionnelles Maghrébines dans les Romans d'Assia Djebbar et Yasmina Khadra KHARKHACHE Souhila Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie SAADAOUI Saloua Université Mohamed Boudiaf de M'Sila, Algérie	131-151
09	الشعر الشعبي في ذاكرة المقاومة الجزائرية 1830 – 1954 الحضور والأصداء عبد القادر خليفى جامعة محمد بوضياف – المسيلة الجزائر	152-166
10	نماذج من الشعر الشعبي بالقبانلية عن ثورة 1871 عبد النور أيت بعزيز جامعة البليدة 2- لونيسي على الجزائر	167-190

Troisième partie : Elmelhoun, l'art poético-musical algérien

11	La mise en mots des urbanités socio-linguistiques dans la poésie populaire algérienne (Elmelhûn) SOUAMES Amira Université Mohamed Boudiaf de M'sila, Algérie	192-203
12	De la théâtralité dans la poésie populaire (melhūn) : Mestfa Ben Brahim et l'expression de latradition populaire LAGUER Hanane Institut National des Langues et Civilisations Orientales, (INALCO), Paris	204-220
13	Hiziya, le corps dans le poème : pour une représentation de l'absence et un lyrisme de la perte ZEBIRI Abdelkrim Université Mohamed Boudiaf de M'sila, (Algérie)	221-240
14	نسقية البناء الحكاني في قصيدة "أفافا إينوفا" أو تهوية "يا أبي" أنموذج تحليل عتاب بلخير جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	241-258
15	جماليات الصورة الفنية في الشعر الملحن الجزائري-شعر المنفى أنموذجا فتحي بوخالفة جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	259-292
16	القضايا الدينية والأدبية في الشعر الصوفي الشعبي من خلال ديوان الشيخ محمد الريفي شبيرة حكيمة بوشلالق جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر	293-308

الشعر الشعبي في ذاكرة المقاومة الجزائرية 1830 – 1954 م

الحضور والأصوات

Popular Poetry in the Memory of the Algerian Resistance (1830–1954) :

Presence and Echoes

أ.د/ عبد القادر خليفي

جامعة محمد بوضياف – المسيلة

abdelkader.khelifi@univ-msila.dz

ملخص /

لقد أبدع الشعر الشعبي في رسم صورة حية عن تجربة المقاومة الجزائرية بكافة تجلياتها في تصديها للظاهرية الكولoniالية على امتداد يتجاوز القرن وربع قرن قبل أن تتفجر ثورة أول نوفمبر 1954، التي دفعت الاحتلال إلى مذبلة التاريخ بعد تضحيات جسام، قدمها الجزائريون على مذبح الحرية.

ترصد هذه الورقة تلك اللوحات التي عرضها هذا اللون الأدبي بأفواه المذاхين والقوالين في ميادين وساحات التواصل الاجتماعي، والتي شرحت السياسات وبسطت الانعكاسات، قد كان لها الأثر الإيجابي على النسيمات والتحركات، مما دفع بالسلطة الفرنسية وأعوانها إلى استشعار خطورتها وتلمّس مدى تأثيرها، فراحت تتصدى بالقمع والتهريب لأصحابها، وبمحاولة دراستها واستخلاص العبر من مضامينها.

الكلمات المفتاحية: المقاومة – الشعر الشعبي – الجزائر – المذاخن – الاحتلال الفرنسي – الملحنون – الذاكرة.

Abstract.

Popular poetry excelled in portraying a vivid image of the Algerian resistance experience in all its manifestations in confronting the colonial phenomenon over more than a century and a quarter, before the outbreak of the November 1, 1954 Revolution, which pushed the occupiers into the dustbin of history after the enormous sacrifices made by Algerians on the altar of freedom.

This paper examines the scenes depicted by this literary form through the mouths of praise singers and storytellers in social communication arenas and spaces, which dissected policies and outlined their repercussions. These depictions had a positive impact on

mentalities and mobilizations, prompting the French authorities and their allies to perceive their danger and assess their influence, leading them to confront their creators through repression and intimidation, as well as by attempting to study them and draw lessons from their content.

Keywords: Resistance – Popular Poetry – Algeria – *Meddahīn* – French Occupation – *Malḥūn* – Memory.

مقدمة.

لقد لعب الأدب الشعبي بألوانه المتعددة وفي طليعته الشعر دوراً معتبراً في إبراز الحالة النفسية والتعبير عن الواقع الاجتماعي، وشكّل علامه على الرفض والمواجهة زمن الكولونيالية بمختلف مراحل تمددها عبر الفضاء الوطني، لاسيما وهي تجسد كل صور الإجرام في استباحة همجية لكل الأعراف والقوانين الإنسانية، فكان إذن هذا الشكل الأدبي رمزاً للتصدي والمواجهة، انبرى له عدداً من الشعراء الشعبيين والمداحين والقوالين، الذين جابوا الأسواق وحضرت التجمعات العائلية والمناسبات الدينية وغيرها، فمثّلوا لساناً معبراً عن آهات وألام ونطاعات بني جلدتهم، فاستطاعوا تقديم تصويرات فنية لتلك الحالة المجتمعية التواقة إلى الحرية والكرامة ورد العداون، بما يعكس مخزون الذاكرة الجماهيرية الرافض دوماً لمنطق العبودية والسيطرة تحت أي ظرف، ومهما كانت جسامته التضحيات.

والحقيقة، أن مضمون ما أنتجته قرائح الشعراء، ولهمت به أفواه القوالين والمداحين يمثل سجلاً حياً للواقع التاريخية ومظاهر الحياة الاجتماعية، وبعثاً لروح البطولة والشجاعة حتى ولو سبّحت أحياناً في عالم المبالغة والتهويل.

ومما لا شك فيه، أن تناول الشعر الشعبي والغوص في مضمونه يعتبر عملاً أصيلاً مرتبطاً بتراثنا الثقافي، الذي يمثل جانباً هاماً من هويتنا وشخصيتنا، ويعدّ دعامة لتأمين بقائها واستمراريتها وجودها وسط تحديات لا حصر لها.

فما مفهوم الشعر الشعبي؟ وفي أيّ سياق تاريخي ظهر بالجزائر؟ وفيما تبرز الأدوار التي مارسها هذا اللون في إطار المقاومة الوطنية؟ وما هي الأصداء التي خلفها؟

الشعر الشعبي: مقاربة في المفهوم

يذهب المشتغلون بالحقل الأدبي إلى أن بداية الاهتمام بالفنون الشعبية يرجع إلى القرن التاسع عشر الميلادي، حينما ظهر مصطلح فولكلور لأول مرة في مجلة علمية بريطانيا عام 1846م، وهو المصطلح الذي عرفته دائرة المعارف الفرنسية بأنه يعني علم الأدب والتقاليد والأدب الشعبية.

وإذا كان ضبط المعنى يبدو حديثاً نسبياً، فإن الاهتمام بما تحويه الفنون الشعبية يعد مسألة قديمة قدم الذوق الإنساني نفسه، فقد عبرت الكلمة عن وجdan الجماعات البشرية منذ فجر التاريخ وقبل أن يعرف الفرد الكتابة والتدوين.¹

والواقع، أن ضبط مفهوم دقيق للشعر الشعبي والوقوف على التسميات المختلفة التي توشّح بها، والتاريخ لبدايات ظهوره في البلاد ليست من الأمور المتاحة بيسراً وسهولة، فقد تعددت التعريفات التي ساقها الدارسون والكتاب لهذا اللون الفني، وتبينت منطلقاتهم، ولما كانت هذه المسائل خارج أهداف هذه الورقة، فإننا سنقف على ما اشتهر من تعريف نعتقد أنها تتقاطع مع المفهوم الشائع.

يطلق الشعر الشعبي على كل كلام منظوم من بيئه شعبية بلهجـة عامـية، تضمنـت نصوصـه التعبير عن وجـدان الشـعب وأـمانـيـه، متـوارـثـا جـيلاً عـن جـيلـ، عـن طـريق المـشـافـهـة،² ويـذهب البـاحـثـ التـليـ بنـ الشـيخـ إلى تـرجـيـحـ الـاعـتـقادـ بـأنـ تـسـميـةـ الشـعـرـ الشـعـبـيـ تـتطـابـقـ بـمـفـهـومـ الطـبـقـاتـ الشـعـبـيـةـ لهـذـاـ اللـونـ منـ التـعبـيرـ، أـكـثـرـ مـنـ غـيرـهـ مـنـ مـصـطـلـحـاتـ.³

ورأى أحدهم أن الشاعر الشعبي هو بمثابة الطاقة المحركة لبعث الحيوية في النفوس، فهو وإن كان لا يخوض المعارك بسيفه، لكنه يتولى تسجيل الواقع بأمانة، وأن له القدرة على خلق عناصر النصر من ركام الجراح والنكسات.⁴

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، التراث الشعبي والشعر الملحون في الجزائر، تحقيق عثمان سعدي، ط1، شركة دار الأمة، الجزائر 2010، ص 05.
² - نصيرة ريلي، "الشعر الشعبي الجزائري النشأة والمصطلح"، مجلة أبو ليوس، المجلد 09، العدد 02، كلية الآداب واللغات جامعة سوق أهراس، جويلية 2022، ص 336.

³ - المرجع نفسه، ص 336.

⁴ - نور الدين بن قدور، "النضال والمقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنمونجا"، مجلة إنسانيات معاصرة المجلد 01، العدد 02، المركز الجامعي صالحـيـ أحـمدـ، النـاعـمةـ، سـبـتمـبرـ 2022، ص 87.

يعتقد البعض أن القصيدة الشعبية الجزائرية تقترب في بنائها الفني من الخطبة أو الرسالة ولا سيما في افتتاحيتها، فهي مزيج بين الشعر والنثر، أخذت من الشعر إيقاعه وحافظت على القافية وأخذت من النثر خطابيته ومقدماته.¹

ومن الملاحظات التي انتهى إليها بعض الدارسين، أن الشعر الشعبي بالجزائر، قد تميز بطابعه الإقليمي، بحيث لم يعالج قضايا احتلال البلاد بنظرة شاملة، وإنما وقع التركيز فيه على حوادث وتطورات منطقة بعينها، في انتصارها أو انكسارها²، ولعل من بين ما سجلناه أيضاً ونحن نعد هذه الورقة غياب العنصر النسوي، حيث لم تقع بين أيدينا أشعاراً لنساء جزائريات، ولم تخلي الذاكرة الأدبية سوى اسم فاطمة شريف³، ولسنا ندري هل قدمت المرأة الجزائرية مساهمات في هذا الباب وضاعت كما ضاع الكثير من التراث، أم أن خصوصية المجتمع، وطبيعته المحافظة عموماً لم تسمح ببروز شاعرات شعبيات، وهي مسألة لا نستطيع الجزم حولها في غياب الوثائق والشهادات.

الشعراء الشعبيون والواقع الاستعماري: تصويرات ومواقف.

لأشك أن المتصفح لمحتوى الشعر الشعبي يقف على تعدد مضامينه ووظائفه التي أداها وفي طليعتها الدور السياسي، بتغنيه بقيم المجتمع وعناصر هويته، وما أظهره من مواقف مقاومة للاحتلال برفع راية الجهاد، وتمجيد البطولات، ورفع مقام المجاهدين والشهداء، أو في ما كشف عنه من إدراك لأبعاد المواجهة، حيث لم يتوان في الخوض في المسائل المرتبطة بسياسات الاحتلال الترهيبية والترغيبية، وما تركته من آثار نفسية ومادية، ومن ذلك، التحولات التي طاولت المجتمع، وقضية الهجرة، وظاهرة التجنис، ولما كانت مساحة هذه الورقة لا تمكنا من رصد وعرض كل ما تم جمعه من إنتاج الشعراء، فقد انتخبنا نماذج منه.

فيما يخص التعاطي مع حركة المقاومة الشعبية في شكلها المسلح، انطلاقاً من بداية الاحتلال حتى مطلع القرن العشرين، كانت الشواهد حاضرة، إذ تشير الكتابات⁴ إلى أن الشاعر عبد القادر

¹ رشيدة سعودي، "أشعار سي محدث أو محدث: الشاعر الجوال"، جريدة دنيا الوطن الالكترونية، 25/03/2014، متاح على الموقع: <https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2014/03/25/324486.html>

٢- تسعديت قاسم و غاليري، الاستشراف الفرنسى والشعر الشعبي الجزائري: ديوان سونك أندونجا، مذكرة ماستر في الدراسات الأدبية، تخصص أدب عالمي ومقارن، قسم اللغة العربية وأدبها، جامعة مولود معمري، تizi وزو الجزائر، 2018-2019، ص 50.

٣- لم نعثر لها على ترجمة أو أية معطيات تحدد الفترة الزمنية التي عاشت فيها، سوى أنها عاصرت الاحتلال الفرنسي.

⁴ عرفت في الدراسات التي تناولت الشعر الشعبي بمرثية الجزائر، وكان عنوانها دخول الفرنسيين، وضمت مائة بيت، ويقول عنها سعد الله: "إن قصيدة رثاء الجزائر للشيخ عبد القادر الوهراني وثيقة تاريخية هامة، وهي ليست مجرد وصف للأحداث التي جرت نتيجة الاحتلال، ولكنها مفعمه بالمشاعر الإنسانية العميقة، فالرجل قد انطلق من غيرته على الوطن والدين والترااث والقيمة التاريخية لمدينته وأثارها، وأنذل، يجب أن تدرس هذه الوثيقة في المدارس والجامعات، وهي دليل على أن الأدب الشعبي الصادق يظل خالدا رغم مرور الزمان". ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر التقافي، ج 8 1830-1954، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 338.

الوهراني قد عالج في قصائده قضية التوسيع الفرنسي في عامه الأول، ويعزو إليها البعض دورها الكبير في التحريض على المواجهة خلال منتصف القرن التاسع عشر، حيث كانت تنشد في الأسواق لاستهلاك الهمم، ومحو عار الهزيمة التي لحقت بسكان العاصمة غداة اجتياحها من قبل حجافل الفرنسيين¹، ومما جادت به قريحته:

الأيام يا خاوتى تتبدل ساعاتها ... والدهر ينقلب ويولى في الحين

بعد كان سنجاق البهجة ووجاها ... الأجناس تخافها في البر وبحرى

الفرانسيس حرك لها وخذاها ... لا هي مية مركب لاهي ميتين

من درى على الجزائر وعلى تحصانها ... وعلى وجهاها نزلت فيه العين.²

ومع توسيع رحى المواجهة مع الغازي الفرنسي شرقاً وغرباً، أخذت انتاجات الشعراء تتدفق من كل حدب وصوب، وهذا الحاج عدّة بن علي الشيريف التحليلي يصور ما وقع في معركة النطاح الأولى³ قرب وهران خلال عمليات المستعمر بغرض احتلال الغرب الجزائري، وهي المواجهة التي كان النصر فيها حليفاً للمقاومة الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر، ومما حمله هذا التصوير:

يا سايل راني نعظم ... في ذا الجيش آلي تلاميم

امشا للبهجة يزادر ... وعمل خصايل ضارب عدای الرحمان

ستر الله عليه دائم ... ذا النجع الغربي أخباره في البلدان

سيدي محى الدين دبر ... في ذا الراي وجأ امزير

في سيق نزل بالحاضر ... هو والمبروك الأفحال بن زيان

من ثم ركبوا العصر ... الأقطاب اجتمعوا اتفقوا في ديوان

خليفا للجهاد لبّا ... واجمع قومان العرابا

¹ - محمد الأمين، "الشعر الشعبي الجزائري أصوله ووحدة مصادره"، ضمن كتاب: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، تيارت ، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2006، ص 88.

² - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، طبعة خاصة، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص ص 36-37.

³ - وقعت المعركة بتاريخ 29 ماي 1832 وكانت بإشراف الشيخ محى الدين والد الأمير عبد القادر، وهذا الأخير شارك في القيادة المباشرة للمعارك، التي دارت رحاها بضواحي مدينة وهران، وأسفرت عن هزيمة الجيش الفرنسي.

قالهم ما كان هربا ... من يهدى في الغيب والك اليوم بيان

للمير نعطوا امكبا ... والي مات امنازله جنت رضوان.¹

ويصف بسالة جيش المجاهدين في معركة رأس العين التي دارت رحالتها خلال الأسبوع الأول من شهر ماي 1832م بالقول:

يا سيلاني نعيد للشکر هديا ... للجيش لي مشرب للكفر الامار²

وفي قصيدة له عنونها: "فرج يا خالقي ودبر" ، تظهر اللمسة الدينية في توجيهه الدعوة إلى الجهاد وإعلاء رأية التوحيد، وترغيب المجاهدين بالجائزة المنتظرة عند الخالق.

يبرح في السما على صوت الأذان احييوا دين النبي الطاهر

من يبغى شي قصور في جنة رضوان يتنعم في الجنان الأخضر

حورات العين يتلقوه في الجنان يشفع في قرابته ويحرر³

لقد كان لكل حركة مقاومة وثورة شعبية شاعرها يتغنى بأبطالها ويسجل مآثرها، وكانت ثورة الزعاطشة 1849م من أبرز الثورات بعد نهاية مقاومة الأمير وهي تمثل الاستمرارية الدفاعية، وبعد استماتة كبيرة وروح مواجهة بطولية تمكّن الفرنسيون من دخول الواحة وتخریبها كلية، وقد نظم الشاعر الشعبي محمد بن عمر وهو من واحة ليشانة المجاورة قصيدة في مدح الشيخ بوزيان قبل نهاية المعركة وفي وقت لاحق، وبعد أن قامت السلطة الاستعمارية بقطع رأس هذا المقاوم وتعليقه مع رأي رفيقه الحاج موسى الدرقاوي ورأس ابنه في مدخل المعسكر، أنسد هذا الشاعر في حفل قروي أقيم عام 1851م القصيدة السالفة فاعتقلته الإدارة الفرنسية، ووضعته في السجن بمدينة بسكرة، حيث اتهم بهديد الأمن العام، مما يدل على تأثير الشعر وصدى ملحمة الزعاطشة، وتخوف الفرنسيين لاسيما وأن هذه الفترة أي أوائل الخمسينيات، قد شهدت تفجر ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية بنواحي ورقلة وتقربت ووادي سوف والتي وصلت آثارها إلى الزيبان.⁴

1 - الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990، ص 96-97.

2 - المصدر نفسه، ص 98.

3 - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 12.

4 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 324.

ويعد فقدان الشاعر الشعبي في الوسط المجتمعي لاسيما إذا كان متخصصاً بخصال الفارس والأديب جاماً بين الكلمة والسيف مسألة مؤثرة، ترك جرحاً غائراً في نفسية محبيه ومناصريه، وقد صور لنا أحد القادة الفرنسيين مشهدًا لهذا التلامم في منطقة قربية من العاصمة، فكتب: "لقد كانت وفاة فارس واحد من بنى حجوط ، وهو الشاعر بوثلجة خسارة كبرى بالنسبة إليهم، فقد كان بتجاويه مع ذلك الشعب الثائر أصدق تعبيراً من جميع الشعراء ، وقد عبر في قصائده الرائعة عن الألم الذي يحزّ في نفسه ، وعن الوطنية التي آمن بها إيماناً صادقاً، ولذلك فإن الشبيبة العربية صارت تتناقل أشعاره"¹.

ومن التصويرات التي خلدت صفحات البطولة، ما تركه شاعر مجاهول حول ثورة المقراني والحداد التي جرت وقائعها خلال سنتي 1870-1871 م.

يا التاريخ تكلم عاود القصيبة ... بما جرى بين الرومي وشعبنا تعاود

خصال ذوك السادات تعيدها علينا ... من عمل شي ياك أنتايا عليه شاهد

من خدم لوطنو يبقى شانو خالد

خذ نعطيك أخبار ذا الرعية ... مسطرة متمومة تاريخها مقيد

اثناء الحرب السبعين تنافروا الخزية ... الالمان تقوى والرومي تنكد

قال هاتوا عريان الجاه والحمية ... قامت الكفرة في شبابنا تجند

اتفقت جميع العربان في خفية ... عولت على الرومي من البلاد تطرد

من خدم لوطنو يبقى شانو خالد²

وفي باب معالجة الأوضاع المزرية المترتبة عن سياسة الاحتلال وقوانينه التعسفية، سجل العديد من الشعراء تعاطيهم مع هذه المسألة، فهذا محمد بن عبيدة السجراطي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر، ينظم قصيدة رسم في بعض أبياتها ما عاناه المجتمع الجزائري من نك ومرارة العيش فكتب:

نضت في زمان أهل الحكم الجاير ... كثرت البدائع وسريق المانا

¹ - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 88.

² - جلوس يلس وأمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 70.

ذا العياد تلطف بها يا قادر ... تحصد الصيّب والدنيا جياعنة

زلّ زهوا ولاّت غير مقاصر ... والصدور تكرب بالغيض املانة

من تسال عن حالو كي داير ... تجبروا قلبو مدقوق بزانة¹

وفي قصيدة يجهل تاريخها، يصور الشاعر عبد القادر بن أحمد المجاجي القوانين الجائرة التي ستها
الاحتلال، ومساعر الأسى والحسرة التي سيطرت على قلوب الناس:

جانا ذاك اليوم مرسول القايد ... ببرية قال جات من عند الفسيان

كي قراها بقات الأمة تتوحد ... تتلطف وتقول استر يا رحمان

قالوا جات اليوم قوانين جدد ... حكم شرع جديد ما راته الاعيان

اللي يحب العيش لفرنسا يسجد ... واللي يقول علاش يدوه لكيان

ما بقى لا خليل لا شرح مقيد ... لا طلبة تفقي بآيات القرآن

المسلم مسكين ما طاق يعand ... وارواح تشوف ما طرى في هذا الزمان

فزعت الناس كل واحد وين شرد ... وعمر سوق الفساد من كثر الطغيان²

لقد ظلّ حب الوطن والاعتزاز بالانتماء إلى الأرض، والتطلع إلى تحريرها ورفع رايته، والتضرع إلى الله ملـد العون والنصرة لتحقيق هذه الغاية من سمات أعمال الكثير من الشعراء، ففي قصيدة "أنا خديم رحال البيضاء" لـ محمد بلخير³ نقرأ:

أنا طلبت ربـي والطالب ما يخاب ... بـجاه حرمة اللوح وكرسيـه

¹ - عبد الحميد حاجيات، "مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال الشعر الملحنون"، ضمن كتاب أعمال الملتقى الوطني حول: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية، المرجع السابق ، ص60.

² - جلوس يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص ص 100-102.

³ - الشاعر محمد بلخير 1822 – 1904، أصلـل منـطقة الوادي المـالـح قـرب العـامـرـية بـولاـية عـين تمـوشـنت حـالـياً شـرـبـ الشـعـرـ وـالـفـروـسـيـةـ مـنـذـ الصـغـرـ، كـوـنـ ثـقـافـةـ عـالـيـةـ دـيـنـيـةـ وـأـدـبـيـةـ وـتـارـيـخـيـةـ بـعـصـاميـةـ، أـظـهـرـ مـقاـومـةـ شـرـسـةـ ضـدـ الـاسـتـعـمـارـ الفـرـنـسـيـ فـيـ إـقـاـيمـ الـغـرـبـ الـجـزـائـريـ، تـعرـضـ لـمـطـرـدـةـ كـبـيرـةـ بـسـبـبـ نـشـاطـهـ الـمـنـاوـيـ لـلـاحـتـالـلـ بـالـسـيفـ وـالـقـلمـ، حـكـمـ عـلـيـهـ بـالـسـجـنـ وـأـبـعـدـ إـلـىـ جـزـيرـةـ كـالـفـيـ عـامـ 1884ـ، حـيـثـ قـضـيـ عـدـاـ مـنـ الـزـمـنـ، عـادـ بـعـدـهـ إـلـىـ الـجـزـائـرـ وـوـاصـلـ تـعـاطـيـ الشـعـرـ الـمـقاـولـ. للـمـزـيدـ يـنـظـرـ: جـلـوـسـ يـلـهـيـ وـأـمـقـرـانـ الـحـفـنـاـويـ، "الـشـعـرـ الشـعـبـيـ الـجـزـائـريـ: قـراءـةـ تـائـيلـيـةـ فـيـ الـمـفـهـومـ وـالـتـطـورـ وـأـسـهـلـ الـأـعـلـامـ". مجلـةـ الـقـافـةـ الشـعـبـيـةـ، العـدـدـ 43ـ الـبـرـيـنـ، خـرـيفـ 2018ـ، صـ صـ 59ـ 61ـ.

تذهب النصارى يمشوا من ذا التراب ... وتوقف العلام اللي تزهو بيه

ألي يدير خمسة ممنوع من الحساب ... إلى مشى تركهم لا حاجه بيه

يببدأ بالشهادة مفتاح كل باب ... ويقوم الصلاة والمال يزكيه¹

وفي سياق تفاعله واندهاشه من السياسة الاستعمارية القائمة على البطش والسيطرة انبرى بقلمه وسيفه تحت لواء ثورة أولاد سيدى الشيخ التي تفجرت عام 1864م، حيث انخرط فيها وهو في سن الأربعين، فكان مقاتلا شجاعا وشاعرا فحلا، تركت كلماته وأبياته باللغة الفرنسية ومن عاصدهم من الخونة، وهو ما جعله مطلوبا من دوائر الاستعمار، التي تمكنت بعد جهود كبيرة ومطاردات لسنوات من القبض عليه، والحكم عليه بعشرين سنة سجنا مع نفيه إلى جزيرة كورسيكا سنة 1884م.²

كانت القصائد التي عرض فيها محمد بلخير جانبا من وصف المعارك من نمط الشعر التحريري، فتلقي الأبيات على المسامع شريطا استرداديا يجعل المقاومة كأنها ماثلة للعيان، مثلما يصور ما وقع في معركة عين الترك غربي وهران، حينما أغارت الثوار على معسكر للجيش الفرنسي المنغمس في احتفالية بذكرى الاحتلال فكتب:

هجلنا علجمات في ماريية ... من هم اقباطيهنها تراعد

خلينا عساتهم مخلية ... وامطامر قفرة البويم يغرد

حكيناهم كيف جك القلية ... ذاك اليوم كلينيلهم متزاهد

ادينا ليبال على الدولية ... بيجو ضروك واش راه يجرد³

وفي ذات الاتجاه نظم الحاج خالد بن أحمد الملقب بالمنداسي الصغير قصيدة مشهورة في أواخر القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين، ومما ورد فيها:

لو صبت القدرة نطير بغير جناح ... ونهدي وطن الجافلين بلا جفلة

¹ - مريم مرايحة و عبد اللطيف حتى، "نزعه المقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجاً"، مجلة المصطلح، المجلد 1، العدد 18، مخبر تحليلية إحصائية في العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2018، ص 84.

² - نور الدين بن قدور، المرجع السابق، ص 95-97.

³ - علي شاحطو، "قراءة في قصائد المقاومة: شعر محمد بلخير أنموذجاً"، مجلة أبحاث، المجلد 05، العدد 05، جامعة زيان عاشور الجلفة، ديسمبر 2017، ص 61.

ما تدرکهم قط في الدنيا الافراح ... ما فيهم خصلة ولا جود بنفلة

ما تنفع حتى حزارة في الجياح ... واشر تعال إذا تلقم الدفل¹.

وفي موضع آخر، يطلق صرخة قوية مزلزلة لاستنفار الطاقات للدفاع عن الوطن:

نبغي نار العز تحرق عظامي ... ويدين النعرة علي تتشبط

نبغي نصفع صاحب الغزر الدامي ... يهدى سيفي بين عينيه مشارط

نبغي نهدر وين بنبت كلامي ... وما نرضاش حديث من في يغلهط

صدر العارف ما يكون إلا حامي ... وعلى صبرو كثرة الهم مسلط

إذا كان الهول خلفي ويمامي ... الطير الحر إذا حصل ما يتخطط².

لم يهمل الشعراء والقوالون الوقوف على تطورات الأوضاع وتبدل أحوال الناس تحت سلطة المستعمر الغاشم، سواء أكان عسكرياً أم مدنياً، وهنا يصور الشاعر قفاف محمد بن الدولة تدهور معيشة الناس من سكان الصحراء الجزائرية، عقب التغيرات التي أفرزت إحلال المعمرين وتكتيلفهم بالتسخير الإداري محل السلطة العسكرية، بعد عام 1871م، فكتب محلاً وراسماً المشهد العام في قصيدة طويل، نقتبس منه بعضاً من الأبيات المعبرة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية والمعنويات.

يا عرافه وقتنا راه تبدل ... ودهشنا بعد ما نقص عنا وطوال

ما متناش قبيل في الغاشي الأول ... وكبرنا وتبدلنا عنا الاحوال

كان العبد على جيبه ما يغفل ... وبرد الدم عليه لا من عاد يسال

في ذا الدولة ما بقى حد يسول ... وتطفر في اللي ما بقى له دلال³.

يعتقد أحد الباحثين الذين اهتموا بالشعر الشعبي في منطقة القبائل وتحولاته بعد انتفاضة 1871م وما ترتب عنها من تغيرات مست حياة المجتمع المحلي في كافة أبعادها، أن هذا النمط من التعبير

¹ - عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص ص 63-64.

² - المرجع نفسه، ص 65.

³ - جلول يلس و أمقران الحفناوي، المرجع السابق، ص 79.

قد أصابته قطيعة حادة على المستويين الموضوعي والأسلوبي بعد القضاء على ثورة المقراني والحداد، فقد ظهر إحساس عميق بالقلق والاضطراب لم يكن معروفا من قبل في الشعر القبائلي حيث نظر إلى المستجدات ومنها سياسة الاستعمار القمعية والوحشية، والقوانين الجزرية المصاحبة لها على أنها نهاية العالم، لاسيما وأنها تزامنت مع الاعتقاد السائد، بأن نهاية القرن الرابع عشر بالتقويم الهجري تعني خراب العالم¹، ومن النماذج التي خلدت اسمها في تاريخ الشعر الشعبي بالمنطقة سي محمد أو محن.²

وعلى ارتباط بساحات المعارك وبطولات المواجهة، وإلى جانب المعالجات التي غاصلت في تتبع الآثار الدمرة للسياسة الكولoniالية على مقومات المجتمع المادية والمعنوية، كان لافتا أيضا اهتمام الشعراء الشعبين بما تعرضت له عائلات الأشراف، كما فعل عدّة التحليات بشأن ما وقع لأشراف منطقة غريس، حيث تحولت المسألة للتبكي على المجد الماضي، والتحسر على ضياع المدن وضعف الدين، وتدخل الفرنسيين في جوانب حياة المسلمين الخاصة، مما أفرز انقلابا في التركيبة الاجتماعية وفي سلم القيم، فصار الوضيع في مقام يتقدم الشريف، وامتاز النحاس على الذهب، برأي الشيخ ابن عثمان، معتبرا ذلك من عجائب الزمان.³

يعد التجنيس⁴ بالجنسية الفرنسية من المسائل التي عالجها شعراء الملحون في قصائدهم حيث اعتبروها خروجا عن الدين الإسلامي، وأطلقوا على المتجمسين لقب المطربين أي المرتدين ورثى الشعراء حالة الجزائر في العهد الفرنسي، وتأسفوا لتأثير المستعمر على الحياة الاجتماعية، ومن هؤلاء الشاعر قدور بن خليفة، الذي يعتقد أنه من جند الأمير عبد القادر، ورغم أميته، فقد تمعن بموهبة شعرية جعلت شعره يلقى رواجا بين أعوام 1867 و 1910، وهو ما أكد عليه الكاتب جوزيف ديبارمي، الذي أشار إلى قوة شعره، وأنه عثر على نسخة من قصائده في البليدة مطلع القرن العشرين.⁵

• ١ - Abdelhak Lahlou, 1871 dans la poésie orale kabyle, revue études françaises, vol 57, N 01, 2021, pp 14-15.

٢ - سي محمد أو محمد (1845 – 1906)، أصل قرية أشرعيون بمنطقة تبزي راشد بولاية تبزي، اسمه الحقيقي محن مهانوش حارب الاستعمار الفرنسي بشتى الوسائل، وأثناء انتفاضة 1871م، قامت السلطات الفرنسية باعتقاله وتعنيبه، ثم قامت باغتيال والده، ونفي أفراد من عائلته وأقربائه إلى كاليدونيا الجديدة، غير أن الرجل ظل يدعو إلى التحرر من خلال أشعاره، وقد قام الكتابان مولود فرعون ومولود معمر بترجمات لأشعاره، فالأول خصّ جزءا منها بترجمة عنونها Les Poèmes de Si Mohand ، صدر عام 1960م، في حين جمع الثاني آثاره المنقولة في ديوان شعري وسمه Les Isefra de Si Mohand ، وظهر سنة 1969م ينظر: رشيدة سعدوني، الموضع الإلكتروني السابق.

٣ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 311.

٤ - من القضايا الشائكة والتي أثارت ردود فعل وطنية غاضبة ومعارضة لاسيما من الطبقات المحافظة وقادة الإصلاح، ما طرحته الإدارة الاستعمارية طبقا لقانون سيناتوس كونسييل لعام 1865م، حول منح الجزائريين الجنسية الفرنسية مقابل شروط لا عقلانية، في مقدمتها التخلص من الأحوال الشخصية الإسلامية، والحضور لمقتضيات القانون المدني الفرنسي، وهي الإجراءات التي قبلتها أقلية من بين أولئك الذين عرفوا بالجزائريين المؤرثين، حيث رضيت بالتجنس، غير أن عددها ظل محدودا جدا حيث تشير التقديرات إلى أن عدد طلبات الاستفادة لم يزد عن 2207 خلال الفترة الممتدة من 1865 إلى غاية 1916م.

٥ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 313.

لم ينس الشعراء الشعبيون أن يولوا اهتماماً لقضية الهجرة والإبعاد عن الوطن، وتأثيرات ذلك على الذهنيات والنفسيات، وهم في ذلك، يريدون تأكيد ارتباط المهاجر أو المهجّر بوطنه، " فهو يرفض أية محاولة للفصل أو التجزئة، ويحاول أن ينظر باستمرار إلى الوطن الواحد، يشترك في الهموم والمسؤولية، كما يشترك في المصير والتبعية".¹

ومما لا شك فيه، أن الشعر الملحون أقدّ أضحي جسراً للباحثين عن الانعتاق، وكما عبر أحدّهم " فإن الشعب لم يجد متنفساً لمعنى مكنوناته إلا القصيدة الشعبية، تسير بها الركبان، وتتجمع حول رواتها الحلقات، يتغنى بها المداح في كل شعب من شعاب الأرض الجريحة، ليضعها ضماداً على شغاف كل قلب مكلوم ".²

الشعر الشعبي والسلطة الاستعمارية: بين القمع السياسي والاهتمام الثقافي.

يذهب المؤرخ أبي القاسم سعد الله إلى أن الشعر الشعبي قد حظي بعناية العلماء والباحثين الفرنسيين وحاربته الإدارة الاستعمارية، فالعلماء اهتموا به منذ بدايات الاحتلال لأنّه في نظرهم يعبر عن حقيقة الروح الجزائرية المقاومة، والسلطة حاربت المداحين أو القوّالين، وراقبت نشاطهم، لأنّهم كانوا نقلة هذا اللون الأدبي ومروجيه، وأخذ بعض الضباط المستعربين يحلّلون نصوص الشعر الشعبي الصوفي لغموصه عندهم، ولاحتواه على رموز وتلميحات تاريخية وسياسية معادية للفرنسيين، فكانت العناية به خلال القرن التاسع عشر لأغراض سياسية في أغلب الأحوال.³

ومن الذين أعطوا عناية كبيرة للموروث الشعبي الباحث الفرنسي جوزيف ديبارمي⁴ الذي قام بتحقيقات ميدانية في منطقة متّيجة مع من وصفهم بالفلاحين العلماء، من رواة القصص الشعبين والمداحين،⁵ وقد ترجم قصصاً وأشعاراً كثيرة حصل عليها من هؤلاء الذين كانوا يتصلون بالأوربيين

¹ - محمد المنقاري، شعر المقاومة الملحون في منطقة الغرب الجزائري: دراسة فنية تحليلية، مذكرة ماجستير في الأدب العربي تخصص أدب شعبي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004-2005، ص 59.

² - عبد القادر خليفي، "الشعر الشعبي البطولي ودوره في وحدة المجتمع الجزائري" ، ضمن كتاب أعمال الملتقى الوطني حول: مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، المرجع السابق، ص 125.

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 307.
⁴ - جوزيف ديبارمي Joseph Desparmet (1863-1942)، أصيل مدينة بوردو بالجنوب الفرنسي حصل بجامعة ليون على شهادة الليسانس في الآداب عام 1884م، التحق بالجزائر ضمن البعثة التعليمية الفرنسية سنة 1891م، حيث عين في تلمسان وهناك بدأ احتكاكه واهتمامه الجاد باللغة العربية والثقافة الإسلامية، وقد تزوج ذلك بنيل ديلوم في اللغة العربية عام 1900، طاف بعدد المدن الجزائرية، منها سكيكدة والمدية والبليدة ومستغانم، واستقر بالعاصمة، حيث صار أستاذًا للغة العربية والعادات الإسلامية بالمدرسة العليا للآداب، يوصف بأنه من رواد الاثنوغرافيا المغاربية في مطلع القرن العشرين، وأنه صاحب نزعة إنسانية رغم انتمائه للإدارة الاستعمارية.

⁵ - kamel Chachoua, Joseph Désparmet (1863-1942) et la résistance symbolique dans l'Algérie coloniale, Site : Archive ouverte HAL/ <https://hal.science> › document, consulté le 24/10/2025.

في الجهة، وتميز بحسن قراءته لأفكار الشعراه حد المبالغة أحيانا، فكان يستخرج منها المعاني المعلنة والمستترة، ويربط ذلك بالواقع والواقع¹، وكان يرى أن الشعر الشعبي يؤدي وظيفة نبيلة لخصلها بقوله: "تضميد الجراح، وشحذ الكربلاء الوطني، وتبشير الهزيمة بل وتحويلها إلى مجد للمهزومين".²

إن اندحار المقاومات الشعبية الواحدة تلو الأخرى، وفشلها في وقف التمدد الاستعماري في أرجاء البلاد، أدى بالشعراء إلى تقوية شكوكاهم من الزمان والظلم المسلط وشيوع حالة الفقر والاستنجاد بالله وبالرسول وبالأولياء الصالحين وبالسلطان العثماني، وكان البحث عن منفذ من تلك الحال من أهم الوصفات النفسية التي كان يغذّي بها الشاعر المستمعين إليه، أو الرواة عنه.³

خاتمة.

لقد وقفنا في نهاية هذه الإطلالة التاريخية حول حضور الشعر الشعبي في ميدان مقاومة الاحتلال الفرنسي وتوسيعاته، وسياسات القائمة على تدمير الإنسان الجزائري، واستباحة موارده وتخريب عناصر هويته على استخلاص جملة من النقاط على النحو الآتي:

- أن الشعر الشعبي قد مثل سجلا حقيقيا للذاكرة الجماعية للجزائريين عبر مختلف ربوع الوطن.
- تمكّن من إلقاء أصواته كأشفة على الممارسات الاستبدادية التعسفية التي استهدفت الجزائريين من عمليات نفي قسري ومصادرة وأشكال ضريبية وفنون إجرامية، كما أبرز بصدق ردود الفعل الوطنية في مواجهة ذلك.
- أظهر تجانس أحاسيس الجزائريين في بيئتهم الحضرية والريفية.
- مما لا ريب فيه أن تأثيراه على المشهد كانت واضحة وأصبح مصدر فلق للإدارة الكولونيالية التي اجتهدت في التصدي للشعراء والمداحين بمحاولات الاستهلاك أو القهر والنفي والسجن.
- دفع بالكثير من الباحثين والمستشرقين إلى القيام بعديد المحاولات لجمعه من أفواه الفئات الشعبية وترجمته بكلفة طبوعه العربية والقبائلية والتارقية واعتباره سلاحا فكريا وتعبويا لا يقل عن رفع السيف وحمل البندقية.

¹ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 308.

² - kamel Chachoua, Op-Cit (Site internet).

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 339.

وبكلمة موجزة، فقد شُكِّلَ الشِّعْرُ الشَّعْبِيُّ الْجَزَائِريُّ خَلَالَ فَتْرَةِ الْاحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّ 1830 - 1954م ظَاهِرَةً ثَقَافِيَّةً وَتَارِيْخِيَّةً بَارِزَةً، جَمَعَ بَيْنَ وظِيفَةِ الْفَنِّ وَالتَّارِيخِ، وَبَيْنَ التَّعْبِيرِ الْجَمَالِيِّ وَالْمَوْقَفِ السِّيَاسِيِّ وَمَنْ خَلَالَهُ حَفَظَ الْجَزَائِيرِيُّونَ عَلَى هُويَّتِهِمْ، وَصَانُوا ذَاكِرَتِهِمْ، وَرَسَخُوا قِيمَ النَّضَالِ وَالْمُقاوَمَةِ، لِيَكُونَ بِحَقِّ وَثِيقَةِ حَيَّةٍ، تَرْوِيُّ تَارِيخَ أَمَّةٍ قَاتَلَتْ بِالْكَلْمَةِ، كَمَا قَاتَلَتْ بِالسَّلَاحِ.

قائمة المراجع.

- 9 - الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990.
- 10 - مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر 2007.
- 11 - جلول دواجي عبد القادر، "الشعر الشعبي الجزائري: قراءة تأثيلية في المفهوم والتطور وأشهر الأعلام"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 43، البحرين، خريف 2018.
- 12 - مريم مرايحة و عبد اللطيف حني، "نزعـة المقاومة في الشعر الشعبي الجزائري: الشاعر محمد بلخير أنموذجاً" ، مجلة المصطلح، المجلد 1، العدد 18، مخبر تحليلية إحصائية في العلوم الإنسانية جامعة تلمسان، 2018.
- 13 - علي شاحطو، "قراءة في قصائد المقاومة: شعر محمد بلخير أنموذجاً" ، مجلة أبحاث، المجلد 05، العدد 05، جامعة زيان عاشور الجلفة، ديسمبر 2017.
- 14 - محمد المنقاري، شعر المقاومة الملحون في منطقة الغرب الجزائري: دراسة فنية تحليلية، مذكرة ماجستير في الأدب العربي، تخصص أدب شعبي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2004-2005.
- 15 - Abdelhak Lahlou, 1871 dans la poésie orale kabyle, revue études française, vol 57, N 01, 2021.
- 16 - kamel Chachoua, Joseph Désparmet (1863-1942) et la résistance symbolique dans l'Algérie coloniale, Site : Archive ouverte HAL/ <https://hal.science> › hal-04354057 › document.